

خاتمة:

قد كان يا ما كان

يا قارئ السعيد...

أنّ رحلة بدأت في زمان ليس بالبعيد

في زمن شهرزاد وليلة...

بدأت الحكاية مع الأسطورة الشهرزادية، يرافقها دليلها المنهج الأسطوري في سفرها الطويل الذي واجها فيه البحر العجاج المتلاطم بالأمواج، ورافقا السندباد في رحلاته وعثرا على الكثر المدفون في كل منهما، وبعد البحث في الأصول والمنطلقات، والتحويلات التي أصابت البطل "شهرزاد" خرجا من هذه المغامرة بنتائج مهمّة: نلخصها فيما يلي:

- يتحقق النقد الأسطوري للأدب حين يتجه الناقد/الباحث نحو دراسة العلاقة بين اللاشعور الجمعي وتصورات الجنس البشري البدائية والأثر الأدبي.

- إنّ هذا الاتجاه النقدي قد تطور انطلاقا من الأنثروبولوجية الثقافية من جهة، وجملة المفاهيم التي أرساها يونغ عن اللاشعور الجمعي وعلاقته بالتصورات البدائية للجنس البشري من جهة أخرى.

- لا يمكن أن نذكر النقد الأسطوري دون أن نذكر "نورثروب فراي" الذي نال بالإجماع صوت النقاد على أنّه السباق إليه.

- جاء النقد الأسطوري "لجيبير دوران" ردّا على النقد النفسي لشارل مورون، الذي لخصه في مقالته "إسهامات في النقد الأسطوري" التي نشرها في العدد الرابع من المجلة الرومانسية، سنة 1972م.

فالنقد الأسطوري ولد في بيئة فسيفسائية متداخلة المشارب والألوان، لوحة رسمها "بيار برنيال" وأخرجها سنة 1992م إلى الوجود بخطوات متميزة عن الأنثروبولوجيا بشقيها التطورية "جيمس فريزر" والوظيفية "مالينوفسكي" وعن المدرسة البنائية "كلود ليفي ستراوس"، وكذلك علم النفس التحليلي "فرويد ويونغ".

- إنَّ النقد الأسطوري من شأنه أن يجيب على جملة من التساؤلات التي تطرح في مجال الأدب المقارن، وعلاقة الأسطورة بالأدب، وأهم سؤال يطرح في هذا المجال هو: كيف نعالج نصاً أدبياً معالجة نقدية على ضوء التوظيفات الأسطورية التي يحملها النص؟
- يسعى النقد الأسطوري إلى البحث عن العناصر الشعرية التي أضفتها الأسطورة على النص الإبداعي، لذا فهو يستند إلى الفهم والتفسير.
- يستند النقد الأسطوري إلى مقالات يرصد من خلالها الناقد شعرية النص والمتمثلة في التجلي، والمطاوعة والإشعاع.
- تأخر ظهور هذا النقد عند العرب ولم يظهر إلا في أواخر الستينيات إلا أنَّ الغرب كان سبقاً لإرساء دعائمه وإقامه كيانه، ويرجع هذا إلى مكانة الأسطورة عند كل منهما، ولهذا:
- من الصعوبة جدا الإمساك بمعنى واحد للأسطورة فعلى اختلافها اختلفت المفاهيم وتعددت، فالأسطورة هي محاولة العقل الأولى لتفسير الوجود، وهي ذلك الدين البدائي، بل هي قول مصاحب للشاعر الدينية، تفيد كذلك الأقاويل المنمقة المزخرفة التي لا نظام لها حتى أنها تشبه الكلام الباطل.
- الأسطورة هي زبدة الفكر البشري عبر آلاف السنين، وهي الشاهد على عبقريته، وهي تاريخية وثقافية وجغرافية ورؤيته للكون والعالم.
- الأسطورة ليست بدعة ولا وهما ولا تهيئات من وضع الخيال لذا ليست هي الخرافة وليست هي البدعة لأنَّ الأسطورة هي محاولة لفهم الكون وتفسيره.
- تتلخص وظيفة الأسطورة حسب رأي يونغ في مسألة زيادة إدراكنا لطبيعة النفس البشرية، عن طريق الرمز الذي تتضمنه الأسطورة، وقيمتها تبدو في الدلالة العامة التي تكشف والتي تعكس العالم والعقل البشري.
- لكل شعب من الشعوب أساطيره الخاصة التي تضمن له فكره وثقافته وتاريخه. لقد وصلتنا الأساطير في حمولات أدبية، حيث لا يمكن الفصل بينهما، ونحن في الواقع ندرس أدب فيه أساطير، ونقرأ أساطير فيها أدب، ولعلَّ الفارق المهم هو في قداسة الأسطورة وتكاملها على عكس الأسطورة الأدبية التي تفقد قداستها، فمن الأسطورة تسربت ألوان الأدب، فهي منبع الإلهام الأدبي وهي في النهاية دافعا لعلوم كثيرة كالأنثروبولوجيا والسيكولوجيا.

- إنَّ الشعر وليد الأسطورة يحمل من جيناتها عديد الخصائص والميزات، ويرث من سلطانها وسطوتها نظامها الرمزي الذي لا ينضب، ويأخذ منها تقنياتها السحرية لكي يقول ويكون الأشياء والكلمات.

- إذا كان الشاعر أمام نص الأسطورة يمزق ثيابها كما يشاء لينسج منها نصا آخر، نصا إبداعيا متداخلا ومتشابك الخيوط، فلوت من قبضة القارئ، هارب لا يعرف له مستقر فإنَّ الأسطورة تبقى خالدة تحافظ على صورتها الأولى.

كما أفضت الرحلة إلى نتائج أخرى متعلقة "بشهرزاد".

- كانت شهرزاد في الليالي تمثل آلهة المعرفة والحكمة إنها "إيزيس" الليالي غير أنَّ شهریار "يهوه" الليالي رهنها روحا وجسدا لمشيئته، ورهن حياتها بين حدَّ السيف والعنق بكلمة.

لقد آثرت قضية أصل الليالي زوبعة نقدية لم يفصل في أمرها لحد الآن، فمنهم من أرجع أصلها للفارسية، وآخر للهندية، وهذا للعربية وذلك لليهودية، وبالمثل كذلك دار النقاش حول "شهرزاد" فليل إنها فارسية، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه إلى إلغاء وجودها كونها لا تتعدى أن تكون شخصية ورقية رسم ملامحها الخيال البشري.

- لقد ساهمت عدة عوامل في أسطورة شهرزاد حيث أن البحث في أصلها وفي زمانها هو أسطورة بحدِّ ذاتها، فلقد أصبحت شهرزاد صورة الشرق ورمز الأنوثة والرِّبة الخالدة.

- إن شهرزاد اليوم هي ليست شهرزاد الأصل، إذ ساهمت عدة عوامل في تغيير ملامحها الأولى فمنذ سافرت للغرب مع ترجمة حالان إلى ظهورها بالثوب الإفرنجي على يد "غوته" (Goethe) وفي ارتحالها إلى العالم الغربي كانت تكسب أوصافا وصفات دخيلة عنها. ساهم حالان في تقديم "شهرزاد" ومنذ ذاك الحين والأدباء والشعراء يستخدمون أبعادها الفكرية والسياسية والاجتماعية والثقافية في أعمالهم إلاَّ أنَّهم يحوِّرونها ويطوعونها وفقا لرؤيتهم الخاصة.

ومن خلال هذه الثوابت والمتغيرات ووفق حركية التجلي والمطاوعة حاولنا رصد تجليات شهرزاد في الديوان انطلاقا من البحث عن التقنيات التي وظفت بها الشاعرة شخصية شهرزاد التي ساهمت في تغيير ملامحها وإلباسها رؤيتها الخاصة للعالم، ولذلك أفضى هذا السعي إلى نتائج نذكر منها:

"شهرزاد" رمز استهوى معظم الشعراء العرب والغرب و"سامية عليوي" واحدة من الشعراء الذين تكونون من استخدام هذا الرمز استخداما شعريا متميزا، فلقد تمكنت من إقحام شهرزاد في سياقها الشعري حتى بدت كأنهما روحان حلتا بدنا أي أنها جمعت بين المغزى الشعوري العام والمغزى الشعوري الخاص، شهرزاد الأسطورة مثلت ينبوع إلهام للشاعرة.

-الشاعرة استندت في موضوعها إلى الأسطورة الأدبية الشهرزادية وإلى الواقع الإنساني في بناء فني موحد خلق نموذجا فنيا حيا.

-اهتمت الشاعرة بشهرزاد فجعلتها البؤرة الأساسية التي تحكم جميع خيوط القصيدة سواء من حيث الدلالة أو البناء الفني فمن حيث الدلالة نجد أنها هي اللسان الناطق بها.

-شهرزاد والحكي قيمتان متلازمتان لا يمكن الفصل بينهما، إن لم نقل إنّ الحكي هو الأساس الذي نقرأ عليه هذه الأسطورة، فالقول هو المجال الذي كانت شهرزاد تصنع من خلاله عالمها و مغامراتها، و به تحقق رغباتها وأحلامها، و حياتها. وإذا كان الحكي لشهرزاد مصدراً لحياتها، فإنّ حكي عليوي هو خطاب لما لم تقله "شهرزاد" بل لما سكنت عنه طيلة ألف ليلة وليلة. فالشاعرة تقرّ من البداية أنّ شهرزاد لم تقل كل شيء وكان عليها أن تواصل كلامها، ومن هنا (مفارقة الحكي) ومن داخل أسطورة شهرزاد نسجت الشاعرة خيوط قصيدتها/ديوانها بشكل منسجم مع تجربتها من جهة وتطلعاتها من جهة أخرى.

- استند الديوان إلى العنصر القصصي الدرامي، الذي يعتمد على جسارة اللغة، والحديث النفسي واحتفاظ الشاعرة بجوهر شخصيتها (الحكي/ الخلاص) أضفى جمالية وقبولاً لدى القارئ.

-لقد اتخذت الشاعرة شهرزاد كنموذج أسطوري تتحدث به عن نفسها وعن وضعية المرأة في زمانها، لهذا اتخذتها قناعاً تعبّر من خلاله على ما يجول ويصوّل في خيالها، لهذا استطاعت ببراعة فنية عالية أن تستخدم الأسطورة في إثراء تجربتها الشعرية، واخصاب الدلالة الفنية.

كل هذا أضفى على هذا التوظيف جماليات تبينت في:

-خلق لغة شعرية مفعمة بالاستعارات والرموز الأسطورية، فشهرزاد فجرت الطاقة التخيلية التي تكتنرها الشاعرة مما أتاح لها التأسيس لبؤرة تحدد من خلالها علاقتها الإنسانية، لتتخطى بذلك كل الحواجز وتكسر كل القيود.

-قدمت الشاعرة سياقها اللغوي/العلامات والألفاظ بنظام تعرف أهميته مما أصفى على هذه الدوال إضاءة في المعنى المراد الوصول إليه، إذ قدمته في علاقات متكاثفة وسحرية في الآن نفسه.

-لقد حازت لغة الشاعرة على الاختلاف والاتساع في المعنى من خلال سببها وبعثرتها، سخبها وتفلتها من القتل مما يجعل تقشير النص متعدد لانهاضي، يؤوله القارئ في إطار حدود القصر المرسوم لا غير، في قصر انزاح عن قلعة النسر النائم.

-لقد كانت لغة الشاعرة لغة أسطورية، مكثفة، غامضة، متراحة، رمزية، منفجرة المعاني/المدلولات، بل كل علامة فيها_علامات الترقيم_ حبلى بالدلالات.

-تعددت وظائف/ موتيفات الأسطورة في شعر عليوي، تعدد الأبعاد والدلالات الأسطورية الشهرزادية في ديوانها، وهذا طبعاً وفق تلك الرؤى الشعرية التي أوجدتها ظروف ومواقف جعلتها تفرغ كامل طاقتها الشعرية في الديوان.

-استخدمت الشاعرة وسائل فنية استمدتها من الواقع الأسطوري في سياقات جديدة، بطريقة متشابكة ومنسجمة مع البناء الفني إذ الإشارات الأسطورية داخله دخولا محكما في نسيج القصيدة لذا تمكنت من تكثيف نصها بالدلالات المتعددة.

-تستعير عليوي من الليالي كل ما يمكنه أن يخترق الفضاء ويختزل الزمن، وفقا لتفاعلها مع شهرزاد الأسطورة، وذلك فهما لعلاقة متشاكلة تحتوي اللغة والفكر والوجود.

-الليالي معين لا ينضب للأقلام المبدعة وللصور التي تهب الشعراء والأدباء أبعاداً في أعمالهم. -لقد تمكنت الشاعرة من إيجاد الترابط العضوي بين أبيات/أسطر القصيدة من خلال تناسق وانتظام البنية اللغوية والإيقاع الموسيقي وكذلك من خلال القص الذي أصبح ميزة هذا الديوان.

-تعددت الألوان الموسيقية في الديوان من وزن وقافية وروي لتعدد الحالات النفسية للشاعرة، ورغبة منها للتوازن لجأت إلى عنصر التوازي.

وما يمكن أن نقوله عن كلام "عليوي" أنه امتداد لنص الليالي قادم من لحمته، ومن إشاراته، منفتح على عوالم الحكاية التي نسجتها شهرزاد، تلك العوالم التي احتضنت المسكوت عنه، ونمت به عبر ألف ليلة وليلة، وعبر آلاف السنين، ذلك لأن منظور المجتمع للمرأة يجعل النص

يتكرر متناميا من بواعثه، وممتدا في جمل الشاعرة التي استوعبت ذات شهرزاد في علاقتها مع الزمن، إذ لا تقنع الشاعرة بأن تسكت عن المسكوت عنه في خطاب الليالي لذلك تحرق المؤلف وحكاية شهرزاد، لتصنع عالما حواريا، نافذا إلى الوجود، معبرا عن رؤية الطرفين/شهرزاد وشهريار، لهذا بدأت الشاعرة ديوانها بعنوان معطوف على خطاب الليالي، إلا أنه مفعم بروح الأثنى التي ترى أن الحوار هو المفتاح للخروج مما نحن فيه. وبلغني أيها القارئ السعيد أن الشاعرة كانت بروحها هذه تسعى لبناء مدينة فاضلة يغيب فيها الصراع ويسودها الهدوء والسعادة، التي مستنا ونحن نعيش معها رحلتها التي ودعناها مع أولى خيوط الفجر، وللديك علا صياح..